(٣)

الأدب مقاومة

- آنا اخماتوفا
- هان سوين
- نادين جورديمر
- كلير تشريللى
- يوكو وأخواتها

آنا اخماتوفا

آنا اخماتوفا

إحدى أبــرز علامات عصرها في قــرض الشــعر. خصصت مجلة الآداب السوفيتية عددًا خاصًا حول حياة الشــاعرة وإبداعها وكيف تأثرت بالحركات السياسية المتعاقبة في الاتحاد السوفيتي وقد اســتطاعت بالقصائد التــي أبدعتها أن تؤثر في وجدان أبناء القرن العشــرين سواء داخل بلادها أم خارجها.

في مقدمة العدد الخاص من مجلة الآداب الســوفيتية عن الشــاعرة قدمت المجلة مختصرًا لسـيرتها الذاتية بقلم آنا اخماتوفا نفسها في عام ١٩٦٥، أي قبــل وفاتها بأربعة أعوام تقريبًا. وفي هذه الســيرة تقول: «ولدت في الثالث والعشــرين من يونيو ١٨٨٩ في مدينة صغيرة قريبة من أوديســا، وفي ذلك العام كان أبي قد أحيل إلى الاســتيداع بعد عمل طويل في الهندســة البحرية مما دفعه يرحــل بنا بعد عام من ميلادي إلى الشــمال حيث عشــنا هناك خمس ســنوات. كانــت أولى ذكرياتي وانطباعاتــي عن هذا المكان الذي حللنا فيه أنــه مليء بالخضرة ومليء

بالحدائق الرائعة. هناك كنا نعشق البحر ونذهب إليه نحن الأصدقاء القادمين من المدينة القديمة».

وقد تعلمت آنا اخماتوفا من القراءة الأولى من كتب ليو تولستوى المبسطة من أجل الأطفال وراحت أسرتها تعلمها اللغة الفرنسية، بالإضافة إلى الروسية؛ وذلك أسوة بأبناء الأسر الكبيرة فى تلك الآونة. «قرضت القصيدة الأولى وأنا فى الحادية عشرة وتأثرت بشكل واضح بكل من بوشكين وليرمنتوف، لكن الديوان الذى أثر كثيرًا فى وجدانى هو مولد غلام من البلاط الملكي للشاعر درجانين، وكانت أمى تعرف أن أشعار هذا الديوان قد أصبحت أغنيات لقلبى».

فى عام ١٩٠٥ انفصل الأبوان، فرحلت الأم مع ابنتها إلى الجنوب، وعرفت الأسرة الفقر الشديد، لكن ذلك لم يمنع «آنا» من الاجتهاد فى الدراسة قدر الإمكان، وراحت تكتب الكثير من القطع المنظومة والنثرية خاصة أن هذا العام قد شهد اضطرابات وقلاقل فى روسيا. واختارت الأسرة أن ترسل ابنتها إلى مدينة كييف للدراسة فى مدرسة قواعد اللغة حيث تخرجت فى عام ١٩٠٧.

فى السنة نفسها التحقت «آنا اخماتوفا» بكلية الحقوق النسائية بكييف وراحت تدرس تاريخ القانون، وخاصة القانون اللاتينى. ولم تحس يومًا أن مواد القانون الجافة تتعارض مع رقة ووجدانية الشاعر، فراحت تنهل من دواوين الشعراء الذين تحبهم وراحت تقرض ما تجود به قريحتها من شعر.

فى عام ١٩١٠، تزوجت «آنا اخماتوفا» من نيكولاى ستينانوفتش، وذهبا إلى باريس لقضاء شهر العسل، وهناك التقت بالعديد من الأدباء الباريسيين. وما أن انتهت رحلة شهر العسل حتى قررت أن تستكمل حياتها العملية بالإضافة إلى حياتها الزوجية. فاستكملت دراسة التاريخ والآداب: «فى تلك الفترة كنت مستعدة لتقديم كتابى الأول».

كان هم «اخماتوفا» هو أن يكون شعرها رمزًا لحركة عصرها من الطليعة والتقدمية، فقد شهد الشعر التقليدى أزمة كبرى فى عام ١٩١٠، وراح بعض الشعراء يقصرون لقاءاتهم من أجل إعلان أول ورشة شعرية فى روسيا، وكانت «آنا اخماتوفا» أبرز أعضاء هذه الورشة وساعدتها سفرياتها العديدة على الاحتكاك المباشر بحركة الشعر الأوربى. ففى عام ١٩١٢ زارت باريس وجنوا وفينيسيا ومدن أوربية عديدة، وتجولت فى المعارض التشكيلية الإيطالية، وفى هذا العام أيضًا صدر ديوان الشاعرة الأول تحت عنوان «أمسية»، كما رزقت بابنها الأول «ليو»، وعلى رغم أن الديوان الذى أصدرته الشاعرة لم يطبع منه سوى ثلاثمائة نسخة، إلا أن الانطباع العام عنه كان جيدًا وقابله النقاد باستحسان بالغ.

صدر الديوان الثانى للشاعرة «آنا اخماتوفا» فى عام ١٩١٤ تحت عنوان «زهرية»، وكانت قد اختارت مدينة «سان بطرسبرج» مكانًا للإقامة مع أسرتها، ومع ذلك كانت تذهب إلى الريف فى كل صيف من أجل البقاء لأيام طويلة وسط الحقول الخضراء.

تقول «آنا اخماتوفا» إن النقاد الذين استحسنوا كتابيها الأولين كانوا

ظالمــين فيما يتعلق بكتابها الثالث «السـرب الأبيـض» الذى صدر عام ١٩١٧». وقد جر عليها هذا الكتاب العديد من المشـاكل، فقد منع بيعه فى موسكو، وكان على الشاعرة أن تتعامل بحرص مع السلطات الجديدة التى جاءت عقب قيام الثورة البلشـفية، حيث اختارت «آنا اخماتوفا» أن تعمل كأمينة مكتبة فى أحد المعاهد الزراعية، وفى عام ١٩٢١ صدر لها كتابان جديدان هما «لسـان الحمل» و «عام الغد».

«منذ بداية العشـرينيات بدأت دراســة علوم الهندسة المعمارية فى سـان بطرســبرج القديمة.. ورحت أدرس حياة بوشـكين» وقد كانت نتيجة دراســتى لبوشـكين أن أبدعت ثلاثة كتب منها «صيف الحجر» وطبعت جميعها.

وفى تلك السـنوات دفعت «اخماتوفا» ثمن الثورة غاليًا، فقد أعدمت السلطات زوجها الشاعر «جومسليف»، ونفى ابنها الوحيد «ليو» سنوات طويلة فى سـيبيريا، كما مات صديقها الشـاعر الكبير «مندلشتام» فى معسكرات الاعتقال فى سـيبيريا. وقد دفعت هذه الظروف الشاعرة أن تكتب العديد من القصائد الهجائية للديكتاتور ستالين كان يتم تداولها فى سرية شديدة.

على المسـتوى العام توقفت الشاعرة عن الإبداع فى الفترة بين عامى ١٩٢٥ و ١٩٤١، إلا أنها كانت تبدع من وقت إلى آخر إحدى تلك القصائد الهجائية ضد ستالين وحكومته. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عاصرت حصار مدينتها سـان بطرســبرج التى أصبح اسمها لينينجراد.

وراحت ترقب انحســار القوات الألمانية عنها، وأحست أن الوطن أغلى من الديكتاتور الذى يحكمه، فجاءت قصائدها ذات لون مختلف تمامًا، وعقب انتهاء الاحتلال الألمانى للمدينة رحلت الشاعرة إلى موسكو.

«اكتشفت آنذاك قيمة النوع الإنسانى»، «بدأت أنظر إلى الحياة بشكل مختلف تمامًا». كانت قصائد الشـاعرة تـذاع يوميًا عبر الإذاعة وتطبع بمئات الألوف من النسخ، ومن هذه القصائد:

«عرفت كيف تذبل الوجوه.
وكيف يحدق الخوف من تحت الأهداب المسبلة.
وكيف يندمج الألم أسفل الجبهات.
صفحات قاسية بحروف مسمارية مفضفضة على حين غرة.
كيف تتحجر الابتسامة فوق شفاة لدنة.
ويرتجف الخوف فى ضحكة يابسة مبتسرة.
أنا لا أصلى من أجلى فقط.
بل من أجل من كانوا معى هناك فى برد ذئبى وسيفى الملتهب.
تحت جدار أحمر أصابه العمى.

وقد ارتبطت «آنا اخماتوفا» بمدينتهـا فلم تفارقها إلا قليلاً. فكلما ذهبت عنهــا بعيدًا عادت إليها مشـتاقة يملؤها الحنــين والوجدان، «صدمتنى مدينتى فرحت أكتب عنها مقالات نثرية نشــرتها فى كتابىّ «ثلاث شجرات من الليل» و«مباراة الموت».

اهتمت «آنا اخماتوفا» بعد ذلك بمســألة ترجمة الأدب بين اللغات،

وبعد أن انتهت الحرب، راحت تترجـم العديد من الروايات والآداب الأخرى خاصة الفرنسية إلى اللغة الروسية. ولم تتوقف أعمال الترجمة حتى وافتها المنية فى أواخر الستينيات، وقد أبعدتها الترجمة كثيرًا عن قرض الشعر إلا أنها فى عام ١٩٦٢ نشرت ديوانها «أشعار بلا بطل» وهو عبارة عن قصائد كتبتها طوال ربع قرن من الزمان.

وفى السيرة الذاتية المختصرة التى كتبتها آنا اخماتوفا عن نفسها فى عام ١٩٦٥ أكدت أنها لم تتوقف أبدًا عن قرض الشعر.

«لقد كتبت الشعر حتى أجعل من حياتى إيقاعًا مثيرًا وأصبح إحدى بطلات التاريخ».

وترى الشاعرة فى قصيدتها عن الشاعر أن البعض يحب الحياة، فيروح يعزف بأذنيه أو عينيه. والشاعر يعزف بوجدانه حتى يمكنه الطيران من الأرض إلى السماء، يرى الأشياء بعينيه هو لأنه صادق. ويهمنا أن نترجم جزءا آخر من قصيدة من أواخر الأشعار التى قرضتها «آنا اخماتوفا»:

أحدثك من تحت الجدران المهدومة
من أسفل الصرخة المتوحشة
من تحت قيمة الإنسان وخلاياه
عندما كنت أحترق على وجه السرعة.

الجدير بالذكر أن الشاعرة أصبحت وحيًا للعديد من الفنانين التشكيليين فى الاتحاد السوفيتى سابقًا، فراحوا يرسمون وجهها الحزين، كما أصبحت «آنا اخماتوفا» مصدر إلهام للفنان التشكيلى

المعروف «موديلياني» الذى رسمها فى لوحة مشهورة فى العام ١٩١١، كما رسمها، فافان اسحاق فى لوحة انطباعية عام ١٩١٤، ورسمها نيكولاى تيرنا فى أكثر من لوحة فى أواخر العشرينيات.

هان سوين

لا يمكن أن نرصد حياة كاتب من بلد دون أن نربط هذا الكاتب بحركة الأدب فى بلاده، وعليه فلا يمكن أن نتحدث عن الكاتبة الصينية «هان سوين» دون أن نلقى الضوء على الحركة الأدبية الحديثة فى الصين.

ولأن مراجعنا فى المعرفة بالسيدة «سوين» مكتوبة باللغة الفرنسية، فسوف نحاول إلقاء الأضواء على الأدب الصينى المعاصر من خلال الروايات المترجمة إلى اللغة الفرنسية فى العقدين الماضيين. قد تكون مثل هذه الكتب عنوانًا للثقافة فى الصين، وقد تمثل عينة عشوائية للإبداع الأدبى هناك.

شهدت العاصمة الفرنسية اهتمامًا بالثقافة الصينية، خاصة بعد اندلاع ثورة الشباب الأخيرة التى قابلتها السلطات بالعنف الشديد وربطت الأوساط الثقافية فى العالم بين ما فعله الشباب وبين الثقافات التى تعرفوا عليها. كما شهدت العاصمة الفرنسية فى تلك الآونة أيضًا حركة واسعة فى ترجمة الآداب الصينية الحديثة إلى اللغة الفرنسية. وهذه الكتب التى ترجمت لم تقتصر على فن دون آخر، فهناك ترجمات

للرواية والشعر والمسرح والنقد الأدبى فضلاً عن انفتاح سينمائى عرف النجاح فى مهرجانات السينما.

تقول مجلة «الاكسبريس» الفرنسية إنه فى الفترة من نوفمبر ١٩٧٨ إلى العام ١٩٨٥ استيقظ الشعب الصينى على زهرة تفوح منها رائحة الديمقراطية. وحول هذه المرحلة الانتقالية فى تاريخ الشعب الأصفر ظهر كتابان أولهما «عش العندليب لم يصنع ربيع بكين» الذى قدمه الكاتب «هولنج سكان»، وهو مدرس بجامعة الصين الشعبية فى أوروبا منذ فترة طويلة، ثم عاد إلى هونج كونج واستقر بها. أما الكتاب الثانى فهو «ربيع بكين» الذى قدمه الكاتب الفرنسى فيكتور سيدان. وقد ركز الكتابان على المرحلة الانتقالية التى تمر بها البلاد بعد وفاة «ماوتسى تونج»، وفيهما اتفق الكاتبان على المعالم الجديدة لهذه المرحلة: «تستلزم الديمقراطية خطا من التوازن الذى يعبر تاريخ الصين الحديثة والثورية. قام «شيانج كاى شيك» بتجميع تحالف كل القوى الحيوية فى الصين ورفض الديمقراطية. أما «ماو» فقد سعى لكسبهم وهو يعدهم أن يمارس الديمقراطية. فالديمقراطية التى يتحدث عنها ليست الأفضل، هناك جيل كامل عليه أن يصنع ثورة ثقافية تختلف».

ولم يكن أى من الكاتبين يعرف أن أبناء الجيل الجديد لا يمكنه أن يصنع ربيعًا جديدًا فى بكين. حيث قوبلت أول محاولة للتطور بكبت شديد وعنف ودموية بشكل لم يصدقه المراقبون فى العالم.

ومن بين الكتب المهمة التى صدرت فى الساحة الأدبية الفرنسية

«حلم فى الراية الحمراء» لكاد اكسوكين الذى يتناول حياة وموت وريث لإحدى الأسر الثرية، فهذا الرجل «باديرا» ولد وفى فمه ملعقة من الذهب، باركته سماء بوذا. وهذا الفتى يحلم بأن ينام فى أرض واسعة تعلوها العديد من الرايات يتمنى أن تسود الثقافة الصينية فوق ثقافات أخرى. إنه حلم مضاد لما حلمه يومًا الأمير بوذا قبل أن يذوب فى النرفانا.. أو لعله التنبؤ بغزو «يأجوج ومأجوج» لأقطاب الكرة الأرضية.

ظل أشهر الأسماء فى الصين الآن هو الكاتب «بار كين» (١٩٠٠-٢٠٠٥) حيث كان مرشحا دائمًا للحصول على جائزة نوبل. وقد ترجمت له إلى العربية روايته الضخمة «أسرة». وفى أدبه يهتم بوصف معاناة رجال الفكر الصينى إبان الثورة الثقافية «كتابة هذه الرواية تثير العذاب والمعاناة لأننى ربطتها بالأحداث التى تمسنى عن قرب».

ومن أهم رواياته «الليلة الجليدية» و «العيون الساحرة»، وقد شغل منصب رئيس اتحاد الكتاب فى الصين الشعبية، ويرأس تحرير جريدة «واجة نجباو» التى تصدر فى هونج كونج. وقد اضطهد أكثر من أحد عشر عامًا (١٩٦٦-١٩٧٧) حين اتهم أن أعماله تناصر الإقطاعية.

أما «هان سوين» فهى الكاتبة الصينية الأكثر توزيعًا وشهرة فى العالم طوال النصف الثانى من القرن العشرين. كما أنها الأكثر ارتباطًا بقضايا العالم الثالث، وهى تعكس الوجه الصادق للصين المعاصرة، تعيش وهى تعمل بين بلادها وبين أوروبا. ويبدو أن «هان» تكرر نفس المأساة المعروفة من أن الآداب فى العالم الثالث لا تجد لها منفذًا إلا من

خـلال كاتب غربى عاش فى البلاد، أو أن يعيـش كاتب العالم الثالث فى بلاد الغرب؛ فبعد السـنوات التى عاشـتها «بـيرل بك» فى الصين وعبرت عنها، اعتبرنا أن هذه الكاتبة قد أجادت التعبير عن واقع بلاد المليار نسمة. أما «سومرست موم» فقد كتب العديد من رواياته عن فترة عاشـها فى بلاد شرق آسـيا. وفى هذه الروايات كانت الأرض صينية. والأبطال أوربيين، أما «لوسيان بودار» فهو كاتب فرنسـى من أم صينية، وقد كتب عن أمه «آن مارى» رواية بنفس العنوان نالت جائزة جونكور عام ١٩٨١. وقد نالت «مارجريت دوراس» نفس الجائزة عام ١٩٨٤ عن روايتها «العاشق» التى تدور حول علاقة حب بين صبية فرنسية وشاب صينى إبان فترة الاحتلال الفرنسـى للصين بين الحربين العالميتين.

وهاهـى ذى «هـان سـوين» تؤكـد نفـس المقولـة. وكان يمكننا أن نعتبرها كاتبة أوروبية جاءت من الصين لولا التصاقها الشديد ببلادها وتاريخها، وبكتابة العديد من الروايات والكتب السياسـية حول هذه البلاد. وتتحدث «هان سـوين» المولودة عـام ١٩٢٠: «أبى صينى وأمى بلجيكية، إذن فأنا أورو آسيوية. عشت فى أوروبا وأمريكا مثلما عشت فى الصـين، أنا امرأة من العالمين، وأعتقد أننى وضعت، بصفة خاصة، فـى مكان جيد كـى أقدم لكل طرف جوانب الطـرف الآخر، وهذا أمر ضرورى». «وهذا الشـىء أكثر ضرورية لأوروبـا منه فى الصين، فلأن الصين شـىء مهم فمن الأحرى أن نفهم الثورة الصينية، وأنتم يا أبناء الغرب قد يبدو هذا الأمر بسيطًا لأنكم ترون دائمًا قصصًا غبية».

وتقول «هان سـوين» فى حديث أجرتـه معها مجلة «مارى فرانس» :
«لم أقل قط إن الصين جنوب، ولم أحاول أن أبين أنها عالم رائع، لكن على كل الناس أن يفعلوا ما فعلته.. لا.. لا.. لم أقل أبدًا إن الثورة الصينية بلا أخطـاء أو نقائص. لكننى أقول إن هناك شـيئًا عظيمًا فيها. فهى تجربة عالمية يحتذى بها، وقبل كل شـىء فإننا نعرف أن الثورة الفرنسية كان بهـا بعض الإرهاب والسـلبيات العظيمة، لكننى أحـاول أن أطرح هذه المزاعم الفردية جانبًا وأقول عندما أقدم كتبى: هذه هى الصين».

قضت «هان سـوين» الفترة الأولى من حياتها فى بلادها داخل أسـرة تنتمـى إلى طبقـة الأثرياء. ذلـك قبل أن يأتى البـلاد «صن يات صن»، ثم «ماوتسـى تونج»، شـهدت فترة الانتقال الرهيبـة التى مرت بها بلادها فتشـعبت بمشاكلها ومعاناتها، كما شهدت أيضًا موت ماوتسى تونج والانفتاح الصينى اللامحدود على العالم.

وتقـول الكاتبة فى حديث لمجلة «بارى ماتش»: «لم أكن شـيوعية يومًـا ما، ولكننى انتميـت إلى الفقراء فى تلك السـنوات، لم أنضم إلى الحزب الشيوعى ولا إلى أى حزب آخر. كنت مستقلة. أنا صينية. تمتد جذور أسـرتى إلى ٨٠٠ عام، أحب بلدى على رغم كل شـىء وعلى رغم كل الطغاة. إنها تقاليدنا أن نحب بلادنا ونخدمها».

بدأت «هان سوين» حياتها العملية كطبيبة بين هونج كونج والصين، حيـث حصلت على شـهادة كلية الطـب عقب نهاية الحـرب العالمية الثانية، وتزوجت من دبلوماسى صينى يدعى «بو».

وتقول «هان سوين» إن زوجها كان يسعى دائمًا إلى إذلالها وإهانتها، وكان يتعمد أن يجعل جنوده يضربونها أمام عينيه إمعانًا فى إذلالها. وبعد أن حصلت على الطلاق من زوجها رافقت ابنتها التى تبنتها إلى مدينة هونج كونج حيث عملت طبيبة فى أحد المستشفيات ونجحت فى ممارسة عملها.

وفى هذه الفترة التقت بمراسل حربى بريطانى ارتبطت به عاطفيًا بشكل ملأ عليها وجدانها، إلا أن المراسل لا يلبث أن يموت فى الحرب الكورية الأمريكية. وراحت «هان سوين» تكتب قصة حبهما بصدق شديد وبنفس أسماء أبطالها. وسرعان ما ذاعت شهرة هذه الرواية، لدرجة أن السينما الأمريكية أنتجت هذه الرواية فى فيلم رومانسى مشهور تحت اسم «الحب شىء رائع» قام ببطولته ويليام هولدن وجينفر جونز عام ١٩٥٥.

وهروبًا من الآلام التى أصابتها عقب مصرع حبيبها، راحت هان سوين تغرق فى العمل الخاص والعام. فى الصباح تمارس الأعمال الخيرية فى المستشفى الذى تعمل به، وفى المساء تجلس أمام آلتها الكاتبة تسطر رواية جديدة عن حبها الضائع. وقد شاركت «هان» فى تلك الفترة فى إنشاء الجامعة الصينية القديمة كى تضمها إلى متحف كوالا لامبور، وفى تنظيم إقامة المعارض، فقامت بإنشاء العديد من العيادات. ونظمت مؤتمرًا حول رياضة اليوجا. لم تكن تكف عن السفر طيلة العام من هونج كونج إلى سنغافورة وماليزيا والهند، حيث تزوجت

من هناك للمرة الثانية «أحب الهند كثيرًا، عشت فيها أكثر من عشر سنوات، وتباحثت مع الحكومة الهندية فى مشكلة الحدود مع الصين، وفكرت أن هذا العائق سوف يحل بأى صورة ممكنة». كما تقول

«لم أقل فى تلك الفترة للهنود افعلوا مثل الصينيين، ولكننى أدركت أنهم يؤمنون بالأسلوب الصينى لأن للبلدين مشكلتهما هى زيادة النسل. وتنظيم الأسرة. ولا تعرف ماذا يحدث عندما يصل رجال التخطيط إلى إحدى القرى الهندية، إنهم يقبضون على كل الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والستين ويقومون بتعقيمهم دون مشورتهم».

جاءت الرواية الأولى للكاتبة لتحقق لها الشهرة فى كل الآفاق، مما دفعها إلى تقديم ثلاثة كتب أخرى حول سيرتها الذاتية، مثل «زهرة ميتة» و«الشجرة الجريحة» و«صيف بلا طيور»، وبعد أن ذاعت شهرتها فى الآفاق راحت الدول الغربية والشرقية تدعوها إلى زيارتها وإلقاء محاضرات عن العالم الثالث. ومن هذه الدول السويد وفرنسا. وفى عام ١٩٥٧ دعاها المؤتمر الأفروآسيوى بالقاهرة لحضور جلساته. كما حضرت أيضًا مؤتمرات حول الطب فى العالم الثالث ببرلين الغربية، ودون أن يدعوها أحد قامت بنفسها باستقبال «نهرو» فى ليلة اندلاع الحرب بين كل من الهند والصين.

وقد زارت «هان سوين» مصر فى أوائل الستينيات من القرن الماضى وكتبت مقالاً حول منطقة النوبة انتقدت فيه بعض مظاهر الحياة فى تلك المنطقة. ثم قامت بزيارة مماثلة لماليزيا إبان الاحتلال اليابانى وانتقدت العديد من الأوضاع هناك أيضًا.

ترجمت مجموعة من الروايات التى كتبتها هان سوين إلى العديد من لغات العالم، لدرجة أنها كتبت باللغة الإنجليزية مباشرة بعض الكتب، كى تكون أقرب إلى قلب القارئ الأمريكى والأوروبى. ومن بين رواياتها الأخرى المشهورة «حب الشقاء» و«أنت ظلى» و«الوجوه الأربعة» و«هناك بابان لمنزلى» و«حتى الصباح».

وتدور روايتها «حتى الصباح» حول علاقة حب مستحيلة بين امرأة أمريكية ورجل من الصين. ومن المعروف أن روايتها الأولى «الحب شىء رائع» كانت عن علاقة حب مشابهة بين امرأة صينية ورجل من إنجلترا. وقد وقف القدر ضد هذا الحب حين مات الحبيب فى الحرب، ومثلما دارت هذه الرواية إبان الحرب، فإن «حتى الصباح» تدور بين عامى ١٩٤٤ و١٩٧٤. تبدأ أحداثها حين تصل بعثة أمريكية إلى الصين، ومن بين أفراد هذه البعثة فتاة جميلة تدعى «ستيفانى»، مولودة فى تكساس بلاد رعاة الأبقار، حيث المغامرة. لذا قبلت هذه الرحلة، وفى الصين تلتقى بأحد ضباط الطاغية «شيانج كاى شيك» تراه يخنق امرأة ثم يركلها وكانت المأساة أن المرأة حامل.

وفى الحال تدخلت ستيفانى وحاولت الدفاع عن المرأة، فما كان من الضابط إلا أن ألقى بنفسه عليها وعض ذراعيها وصفعها ولكمها. وقد أدت الضربات إلى دخولها المستشفى، حيث قابلت جان يونج الطبيب الصينى الذى يحب بلاده ويريد أن تقام صين حرة. وقد تنامت بين الرجل والمرأة علاقة حب مستحيلة، فهى علاقة حب بين حضارتين.

فالناس فى الصين لا يقبلون مثل هذه العلاقات بسهولة. فقد كان العاشقان يسيران فى الشارع ويمكنهما أن يتبادلا القبلات، لكن هذا موقف مشين. لذا انتهى الأمر بالزواج.

وعقب الزواج أصيبت «ستيفانى» بالملاريا والالتهاب الرئوى، فعادت إلى بلادها تعتنى بنفسها. وفى تلك الفترة كان الأمريكيون يعدون أنفسهم لإلقاء قنبلة فوق هيروشيما، وقد شهدت الصين أحداثًا معقدة فى تلك الآونة. فهى تساعد الطاغية «كاى شيك»، وتعطيه مليارات الدولارات كى يحارب الشيوعيين، أما ستيفانى فقد عادت مرة أخرى إلى الصين كى تلد ابنًا لزوجها.

وغير خفى أن هان سوين، استمدت الهيكل العام لهذه الرواية من وقائع تجربتها الشخصية. «ولدت فى الصين؛ فى محطة سكة حديد. ففى عام ١٩٠٣ ذهب أبى إلى بلجيكا، وقابل أمى وتزوجها، مما شكل فضيحة عائلية فى الصين، فأمى كانت فى منتهى الشجاعة ولم يستطع أحد أن يمنعها من الزواج».

وتقول «هان سوين»: «عندما يحدثوننى عن الحرية أقول لا تفكر فيها وأنت جالس فى منزل فخم بفرنسا، وأمامك أشهى المأكولات. الحرية بالنسبة لك أشبه بالكافيار شىء لا لزوم له. أما الحديث حول حرية ناس ليست لهم حرية الطعام والزواج والمعيشة فيختلف، لأنه بدءًا من الآن سوف نتجه جميعًا نحو الحرية».

«هان سوين» مؤمنة إلى حد بعيد بحركة المرأة فى بلادها، وهى تتدافع عن هذه الحركة، فالمرأة فى الصين هى التى تعمل فى الحقول، وفى المصانع ترتدى الملابس الخشنة مثل الرجل. وقد شاركت «هان» نفسها فى مثل هذه الأعمال داخل وخارج بلادها. وتقول عن هذه التجربة «حرية المرأة فى الصين ليست مثيلتها فى بلاد الغرب، قائمة على كراهية الرجل. ليس من العدل أن تكره الرجل وأن تقول: هنا نساء تواجه الرجال. نحن نؤمن أنه على الرجال والنساء أن يعملوا معًا من أجل حريتهم. وهذا شيء يحدث فى الصين، من أجل سنوات قادمة أفضل».

وتقول: «عرفت ولمست وضعية المرأة فى الصين القديمة، أنا امرأة مطحونة وأتذكر أننى قلت هذا فى باريس منذ اثنى عشر عامًا. فقلت: أنا امرأة مطحونة، حينذاك انفجرت فى كل أنحاء الصالة صرخات: ونحن أيضًا.. ونحن أيضًا».

«حرية المرأة فى الصين هى جزء من التيار المتدفق لكل العالم، لكن للمرأة أسلوبها الصينى الذى تعيش به، نحن لا نعانى من مشاكل حول الجنس، ونعتقد أن الحرية الجنسية يمكن أن تصبح عبودية أخرى».

تعكس «هاى سوين» صورة المرأة التى لا تكف عن العطاء فى قضية تؤمن بها. فعلى رغم أنها فى التسعين فإنها لا تزال تكتب حتى ساعة متأخرة من الليل. أما النهار فهو ميدان رائع للعمل.

نادين جورديمر

يمكن رصد مجموعة من الظواهر العامة التي ترتبط بحصول الكاتبة الأفريكانية «نادين جورديمر» على جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٩١. أهم هذه الظواهر هي:

☐ عادت الجائزة مرة أخرى إلى الرواية. فمن المعروف أن أكاديمية ستوكهولم لم تمنح الشعراء والروائيين الجائزة بالتبادل، ففي عام تمنح لكاتب روائي عن إحدى رواياته فضلاً عن مجمل إبداعه. وفي العام التالي يحصل عليها شاعر عن أحد دواوينه، وبذلك فإن الجائزة تهمل تمامًا كلا من الإبداع المسرحي المكتوب، كما لا تلتفت بالمرة إلى القصة القصيرة. وعلى سبيل المثال فإن «وول سوينكا» الذي حصل على الجائزة عام ١٩٨٦ قد نالها كشاعر وليس كروائي، على رغم أن شهرته ذاعت ككاتب مسرحي.

وليس شرطًا دقيقًا أن تمنح الجائزة بالتبادل بين الشعراء والروائيين. ففي عامي ١٩٨٦، ١٩٨٧ منحت لشاعرين هما «سوينكا» و«جوزيف برودسكي». وفي عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩ منحت لروائيين وهما

نجيب محفوظ وخوثيه ثيلا وفى العقدين الماضيين بدأت الموازين تعتدل فمنحـت إلى روائيين مثل جونترجـراس، ولوكليزيو، وهيرتا موللر، كمـا منحت لمسـرحيين مثل داريوفـو، وهارولد بنـتر ومؤخرا لماريو بارجاس يوسا.

□ اتسـمت الجائـزة فى بعض الأعـوام بالاعتـدال وراحـت لأصحابها الذيـن ظلوا ينتظرونها طويلاً. فبعد أن تجاهلـت كل من أوكتافيو باث وجونترجراس وجورديمر الذين ظلا فى قائمة الترشيحات طويلاً، وبعد أن منحـت لأدباء مغمورين بحجة أن الشـهرة أفضل من الجائزة مثلما حدث مع التشيكى «ياروسـلاف سيفرت» والبولندى «شيزلاف ميلوش» وأيضًا الأمريكى «جوزيف برودسـكى» حاـتى ذى تمنح لكاتبة معروفة على المستوى العالمى لدرجة أن اللوم كان يوجه للأكاديمية دائمًا بدهشة عن سـبب تجاهل كاتبـة مثل «نادين جورديمر» طوال هذه السـنوات. حيث ظهر اسمها كمرشحة لأول مرة عام ١٩٧٩ وظلت تنتظر طويلاً.

إذن، يبـدو أن الأكاديمية قـد تخلت- ربما مؤقتـا- عن منظورها القديـم، عندما أحسـت أن منح الجائزة لكاتب مغمـور يقلل كثيرًا من أهمية الجائزة نفسها. فمن يذكر الآن أسماء عديدة حصلت على الجائزة فى السنوات العشرين الأخيرة مثل المجرى ايميرى كيرتش. يبدو أنها اقتنعت أن شـهرة الكاتب ليست أمرًا كاذبًا، بل جاءت نتيجة التحامه مـع قراءه وكتابته لما يمس أشـياء فـى وجدانهم، وقـد كانت «نادين جورديمر» بالفعل واحدة من هؤلاء.

□ عادت الجائزة مرة أخرى للأدب المكتوب باللغة الانجليزية. فعلى رغم أن «نادين جورديمر» من طبقة الأفريكان الذين جاءوا من هولندا على مدى القرون الخمسة الأخيرة إلى جنوب إفريقيا لنهب ثرواتها وامتلاكها، ثم إعلان أنفسهم سادة على أبناء الشعب الأصليين، على رغم كل ذلك، إلا أنها تكتب باللغة الإنجليزية. وعليه فإن الجائزة قد منحت منذ عام ١٩٨٠ وحتى عام ٢٠١٠ إلى تسعة كتاب يكتبون بالإنجليزية مباشرة. ومنهم «شيزلاف ميلوش – البولندى الذى يدرس اللغة الإنجليزية فى الولايات المتحدة – والياس كانيتى ثم ويليام جولدنج وورل سوينكا ثم يوسف برودسكى ونادين جورديمر» وغيرهم.

الجائزة ذهبت إلى من يستحقها، ليس فقط لأننا أمام كاتبة متميزة بل لأننا أمام كاتبة تعيش داخل أتون النار منذ أن بدأت علاقتها بالإبداع وحتى الآن، سنوات طويلة تصدت فيها بقلمها لكل ما يدور فى جنوب أفريقيا من قوانين تعسف عنصرى. فهناك نظام الأبارتايد حيث يعيش البيض فى أماكن بعيدة تمامًا عن الزنوج. وهو نظام ظل غير قائم إلا فى جنوب أفريقيا حتى عام ١٩٩٦. والرجل الأسود هنا يعيش فى أسوأ حالات المعيشة وممنوع عليه ارتياد الأماكن التى يرتادها الرجل الأبيض، سواء الحدائق أو دور السينما أو المدارس وما إلى ذلك. والعلاقة بين الزنجى والأبيض هى علاقة خادم بسيده بعد أن كانت علاقة عبد بسيد لسنوات طويلة. هذا الخادم كان عليه أن يعمل بسخرة فى الناجم

التـــى يمتلكها الأبيض وفـــى مزارعه، وهو يعيش فـــى أكواخ ضيقة مع أســـرته الكبيرة. وكثـــيرًا ما تجبره ظروف عمله على أن يترك أســـرته شهورًا طويلة كى يعمل عند الأبيض من أجل توفير ما يقتات به ويرسل بقاياه إلى أسرته.

والبيض فى هذه البلاد يســـمون بالأفريـــكان Afrikaner كنوع من التميـــز عن الأفارقة بشـــكل عام وعن الزنوج فى داخـــل جنوب أفريقيا بشـــكل خاص. وفى جنوب أفريقيا يوجـــد الأفريكانى القادم من هولندا ويمثلـــون قرابـــة ٢٢٪ من الســـكان، والزنـــوج ويمثلـــون قرابة ٦٠٪، أما الملونون فهم يمثلون باقى السكان.

وللأفريـــكان لغة خاصة بهـــم يتكلمونها ويكتبون بهـــا، هى اللغة الثانية فى البلاد. وقد سعى الأفريكانيون إلى صناعة ثقافة خاصة بهم. وتنتمـــى «نادين جورديمر» إلى هـــذه الطبقة. فقد نزحت أســـرتها من هولندا فى منتصف القرن الثامن عشـــر وراحت تستولى على قطعة أرض ضخمة فى منطقة تســـمى فـــى التاريخ الأفريقى «ترانســـفال»، ما لبث أن تحولت إلى «ســـبرنجز». وهى منطقة غنيـــة بالمناجم المليئة بالذهب وتحوطها أراضٍ خصبة للزراعة. وتعتبر أســـرة جورديمر من كبريات الأسر وأكثرها ثراء فى جنوب أفريقيا.

وعلـــى رغم كل هذا الثراء الذى عاشـــت فيه ناديـــن منذ طفولتها إلا أنها كانت مـــن أوائل الكتّاب البيض، بل هـــى الأولى، التى وقفت ضد

التفرقة العنصرية مما سبب صدمة كبيرة فى أسرتها وأيضًا بين أبناء عشيرتها، واستطاعت أن تجذب إليها فيما بعد العديد من الأدباء الشبان، فى السبعينيات، ومن الأفريكان أيضًا الذين وقفوا يدافعون عن الزنوج ويتعرضون لأبشع ما يمكن أن يتعرض له صاحب قلم. ومن أشهر هذه الأسماء هناك «أندريه برينك»، و «ج.م. كوتسيا» (نوبل ٢٠٠٣)، و«ويليام بلومر»، و«سارة جرترود ميلينك».

وتجىء غرابة هذه الظاهرة أن البيض وجدوا أن عليهم أن يضعوا مصائرهم فى كلماتهم. وداخل أخبار أقلامهم على رغم أنهم يحصلون على كافة الامتيازات. الجدير بالذكر أن هناك الكثير من الكتّاب الزنوج الذين ظهروا فى الجيل الأسبق وراحوا يكتبون دفاعًا عن قضاياهم مثل «بيترا براهام»، و «كان ثيمبا»، و «بلوك موديسان»،وغيرهم. لكن على رغم أهميتهم فإن العالم نظر إليهم على أنهم يفعلون كل ما هو طبيعى، بل إن البعض تصور أن من أدبهم ما هو دعائى. لكن أحدًا لم ينظر قط إلى أدب البيض الذين يناصرون الزنوج بهذا المنظور، خاصة أن أغلب الذين كتبوا لم يقدموا إرهاصات روائية عابرة، بمعنى أن كل منهم لم يكتب رواية أو مقال أقل حماسة، بل إن كل منهم ازداد حماسة مع كل رواية جديدة (راجع مقالنا فى مجلة الهلال عن أندريه برينك فى يوليو ١٩٨٢ ومقالنا عن الأدب الأبيض فى جنوب أفريقيا فى يوليو ١٩٨٤).

«نادين جورديمر» هي الكاتبة رقم (٧) التي تحصل على جائزة نوبل خلال ما يقارب التسعين عاماً وقد توزعت الجائزة على القارات الأربع، عدا الثقافة الأسيوية المغبونة بشكل واضح في تاريخ جائزة نوبل، فهناك السويدية «سلمى لاجيرلوف» عام ١٩٠٩ والأمريكيتان «بيرل بك» عام ١٩٣٨ وتوني موريسون عام ١٩٩٣. ومن الدانمارك نالتها «سيجريد اندست» عام ١٩٢٨، ومن إيطاليا جراتسيا ديليدا عام ١٩٣٧، وفي انجلترا حصلت عليها «دوريس ليسنج» عام ٢٠٠٧، وفي شيلي بأمريكا اللاتينية نالتها الشاعرة «جابريللا ماسترال» عام ١٩٤٥. ومن بولندا فيسلافا شمبروسكا عام ١٩٩٦، ومن ألمانيا حصلت عليها «نيللي ساخس» عام ١٩٦٦، وحيرتامولار عام ٢٠٠٩، والنمساوية الفريدة بلينيك.

وإذا كانت لكل من هؤلاء الكاتبات مدرستها الأدبية وجيلها الذي تنتمي إليه، فإن الأدباء الأفارقة الأربعة الذين حصلوا على الجائزة يمثلون أقطاب مختلفة من ثقافة القارة. ففي الشمال نجيب محفوظ يمثل قمة الرواية العربية، وفي الغرب سوينكا يمثل الثقافة الأفريقية الناطقة بالإنجليزية. لكن ثقافة نادين جورديمر وكوتسيا تمثل أقلية صغيرة، لكن إبداعهما يعبر عن الأغلبية.

ولدت «نادين جورديمر» في سبرنجز عام ١٩٢٣ وعلى رغم شهرتها العريضة إلا أنها لم تنشر سوى عشر روايات ومجموعتين قصصيتين. من هذه الروايات «عالم الغرباء» و «ابنة برجر» و «ناس من جولاي»

و«صاحب الحيازة». أما مجموعتاها القصصيتين فهما «شــيء ما هناك» و «رياضة الطبيعة». والجدير بالذكر أن الســنوات العشرين الأخيرة قد شهدت لنادين نشاطًا أكثر كثافة من قبل.

وعلــى رغــم أن الكاتبة نالت قبل عام ١٩٧٤ أربــع جوائز أدبية إلا أن أعمالهــا كانت قليلة للغاية. فقد حصلت علــى جائزة تمنحها دول الكومنولــث لمن يمثل ثقافتها، وتســمى جائزة سميث. كما حصلت عام ١٩٧٤ علــى جائزة «بوكر» عن روايتها «صاحب الحيازة» ونالت جائزة ثالثة في عام ١٩٦٩ تسمى جائزة «برنجل».

عاشــت نادين جورديمــر مثل كل الكتّاب الأفريــكان والزنوج الذين يناهضــون التفرقة العنصرية. ومــن ضمن هذه المعاناة أنه صدر أكثر من مــرة حكمًــا بعدم مغادرتها منزلهــا لفترة طويلة والتفتيــش الدائم لما تكتب ومتابعة آلتها الكاتبة. ولذا فإن نادين جورديمر لم تغادر بلادها مرة واحدة طوال حياتها. وعلى رغم أن كتبها كانت تتســلل خفية بين النــاس وتعبر الحدود كي تتم ترجمتها إلى لغات عديدة إلا أنها راحت تغــير من أســلوب كتابتها فهي تدعي أنها لا تقترب قط من السياســة ولا من رجالها، وأن قصصها عن نساء يصادقن الأســر الزنجية ويدافعن عنهــا. كما أن مقالاتها الكثيرة التي كانت تكتبها أقرب إلى التحليلات الاجتماعية لما تشهده البلاد من عنف اندلع منذ عام ١٩٦٠ ولم تنطفيء جذوته حتى انقلبت الأحوال، بتولي نيلسون مانديلا حكم البلاد.

وسوف نحاول هنا أن نقرأ اثنتين من أهم رواياتها على الإطلاق وهما «ابنة برجر» ثم «ناس من جولاى».

ابنــة برجر تدعى «روزا»، وهى مثل ابنــة أى زعيم مات. تنظر إلى أبيهــا في البداية على أســاس أنه أب رقيق ورحيـم ولطيف، فكل أب يحب أبناءه بنفس القدر، وكل ابنة تنظر إلى أبيها على أساس أنه أحسن الآبــاء جميعًا دون الاهتمــام بمكانته الاجتماعية أو بدوره السياســى. وروزا فتــاة بيضاء مثــل كل بطلات نادين جورديمر فــى عمر الزهور، مجــرد مراهقة صغيرة مشــدوهة بجمالها الفتــان، فأبوها جراح كبير يحظى باحترام الجميع. إلا أن السلطات تكتشف أن له دورًا فى مناهضة التفرقة العنصرية، فهو يعالج الزنوج مجانًا ويناصرهم، لذا يتم القبض عليه ويتم إيداعه السجن، وبعد عدة أسابيع يجىء نبأ وفاته.

و «برجر» في منظور الناس رجل تقدمي يؤمن بالعدالة الاجتماعية. لذا أعلن حربه ضد التفرقة العنصرية. وعقب وفاة «ليونيل برجر»، نجد ابنته نفســها فى موقف لا تحســد عليه، فهى تختلف كثيرًا عنه وتؤمن بأفكار غــير أفكاره، فهى تعيش حياة رغدة. والفتيات مثلها يتحدثن عن أشــياء تبدو لهن جميلة عن العطور الفواحة، والمساحيق التي تجعل الفتاة جذابة، وموضــات الأزياء ذوات البريق الخاطف للأبصــار. أما الرجال فيبدون بلا مشاكل يلعبون الجولف ويركبون الجياد ويعيشون فى الضياع الواسعة.

لكــن بعد وفاة الأب تتغير الأمور، فالناس ينظرون إليها على أطلال شــبح أبيها وأنه يقف خلفها دائمًا مما يفقدها هويتها، وعلى رغم ذلك

فإنهــا تعلن أنهــا مختلفة كثيرًا عن أبيها، فهــى لم تكن يومًا مناضلة سياســية ولا تحب أن تخرج من عالمها الوردى إلى السياســة ولا تنشد البطولــة فهى ليســت مصنوعة من أجلها. وإذا ســألها أحــد عن أبيها ومنجزاته تتمتم فى حسرة: «وماذا كسب.. لقد مات».

كل ما تحلم به روزا برجر أن تعيش تجربة عاطفية رقيقة مثل تلك التى عاشها أبوها مع أمها فى أول حياتهما.

تقع «روزا» فى حب شــاب وسيم، لكنها ســرعان ما تكتشــف أنه كان صديقًــا لأبيهــا ومؤمنًا بأفكاره، وعليها أن تقوم بممارســة اللعبة الحذرة كخطيبة لشاب مناضل ثورى. ما لبثت السلطات أن قبضت عليه وحبســته مثلما فعلت مع الأب ليونيل. وبحثًا عن وســيلة للتخلص من هــذا التناقض الذى يجثــم على صدرها، تكتب مجموعة من الرســائل لصديقها «كونراد» تحدثه فيهــا أنها تود أن تكون ذاتها وأن عليها أن تبحث عن حريتها الذاتية بعيدًا عن سيطرة شبح أبيها. لذا تقرر السفر إلى أوروبا.

وكمــا تحصل «روزا» على جواز ســفر تقوم بتقديــم تعهد ألا تقابل أثناء سفرها أيًا من الشخصيات السياسية، أو أن تقوم بأى نشاط سياسى محظــور، ثم تركب الطائرة وترحل إلى لنــدن. وفى لندن تلتقى بزميل طفولتها «بعســى»، وهو زنجى يناضل ضد التفرقــة العنصرية ويكافح ضد تعسف السلطات البيضاء، ويحدثها أن آلاف الزنوج قد ماتوا دفاعًا عن حذه القضية. ولأنها ابنة الدكتور «برجر» فعليها أن تكون «شاهدًا»

على أبيها. يخبرها أنها لا تعرف قيمة أبيها الحقيقية، وأنها بهذه السلبية تبخسه حقه وقيمته التي لا يضاهيها شيء سوى الاستمرار في المناداة بأفكاره. ويطلب منها أن تكتب كتابًا عن أبيها، فلا أحد يمكنه أن يفعل ذلك بنفس المستوى الذي يمكنها به، كما يطلب منها أن تقوم بكتابة قصة حياته لإنتاجها في فيلم تليفزيوني.

وشيئًا فشيئًا تتحول «روزا برجر» إلى امرأة أخرى، تبدأ في فهم أعماقها الحقيقية. لذا فإنها عندما تعود إلى جنوب أفريقيا تكون قد أصبحت شخصية جديدة، تنظر إلى أبيها نظرة تختلف، وتختار أن تصبح بالفعل «ابنة برجر»، فتكون امتدادًا له تستكمل مسيرته. ويرى الناقد الفرنسي في جريدة «كانزان ليترير» (٧-١١-١٩٨٠) أن اختيار اسم «روزا» مقصود تمامًا. فإن حياة «روزا برجر» قريبة من تلك التي عاشتها المناضلة «روزا لوكسمبورج».

أما روايتها «ناس من جولاي» فهي تدور حول أسرة بيضاء تتكون من زوجين وثلاثة أبناء، يهربون من ثورة الزنوج ويقودهم في رحلة الهروب التي تبلغ ٦٠٠ كيلو متر إلى مدينة جولاي دليل زنجي. وفي الرحلة يشاهدون فظائع الثورة، وفظائع البيض ضد السود من أجل إخماد ثورتهم. وعندما يصلون إلى جولاي – وتعني يوليو – لا يجدونها قد تغيرت كثيرًا كما كان يزعم البيض، بل هي مليئة بمظاهر التفرقة العنصرية.

وتنتمى الرواية إلى أدب الخيال السياسى، فأحداثها تدور فى المستقبل، حيث تتصور الكاتبة ثورة الزنوج الأخيرة من أجل التحرير. فالثورة شديدة الاشتعال والمدن تحترق والمطارات مغلقة، ولم يعد هناك طريق للهروب والإفلات. الزوجان هما «بامفورد وموربن سمالز»، وهما من أسرة نزحت من «يوهانسبرج». أما الدليل الزنجى فهو يعمل فى خدمتهم منذ خمسة عشر عامًا. وفى الرحلة تبدو مدى الحاجة إلى الإقامة فى مسكن أو لطعام نظيف ومياه نقية، ولأن «جولاى» يسكنها بعض من أقاربهم فإنهم اختاروا التوجه إليها. وعبر الإرهاق وحاجتهم إلى الراحة ورغبتهم فى الوصول يتحول الخادم إلى سيد للرحلة، كلمته هى السائدة والنافذة. ويدور صراع جديد بين الطرفين، فالأب «بامفورد» لا يريد أن تنقلب الأمور وتتغير الموازين. فعلى رغم أن الخادم يقوم بمهمته على أحسن وجه، مثل إعداد الشاى فى الصباح وتجهيز أماكن النوم فى المساء، إلا أن سلوكه العام يؤكد أنه السيد، حتى عندما ينزل الوفد إلى قرية صغيرة يسكنها الزنوج تحس الزوجة «موربن» أنها لا يمكنها أن تواكب مهارة النساء الزنوج فى الأعمال اليومية.

وعبر الإذاعة تجىء الأنباء عن انتصار ثورة الزنوج الذين استولوا على ممتلكات البيض. وبالطبع فإنهم استولوا على بيتهم فى يوهانسبرج «إنهم يطلقون الرصاص فى الشوارع وأصبح الخطر يحوط أطفالهم، ومن الضرورى الدفاع عنهم لحمايتهم باسم العدل الذى ينادى به الرجل الأبيض فى مجتمع غير قابل للتصديق».

وهكذا، يتأكد للأسرة البيضاء أن أمان الرجل الأبيض قد أصبح شيئًا من الماضى، وأن الثورة قد غيرت وجه الحياة فى جنوب إفريقيا.

تلك كانت الرؤية التى تصورتها الكاتبة فى الرواية المنشورة عام ١٩٨١. ولا شك أن الثمانينيات قد انتهت وتحقق الكثير مما توقعته، لم يستول الزنوج قط على ممتلكات البيض، لكنهم عن طريق الديمقراطية صاروا حكامًا وامتلكوا أراضيهم وقراهم بعد أن أعلنت السلطات عن تخليها عن قوانين العزل العنصرى والأبارتايد. وهكذا تلاحمت أفكار الكاتبة مع بعض أغلبية الناس، فالحياة قد تغيرت كثيرًا فى جنوب إفريقيا، ويبدو أن أكاديمية ستوكهولم قد منحت الجائزة للكاتبة تعبيرًا عن إعجابها برؤيتها وصدقها وتعويضًا لها عن سنوات المعاناة الشديدة التى أصبحت الآن من الماضى.

كلير تشريللى

كانت الكاتبة الفرنسية «كلير تشريللى» من القليلات اللائى تحدثن عن التمرد والثورة والنضال من خلال البحث عن عالم أفضل. ونساؤها الثلاث التى استعرضتهن رواياتها الثلاث هن صناع الثورة فى الأماكن التى يقمن، حيث يعشن فى عالم يملؤه الفقر والاستغلال لكنهن لا يعترفن بالأمر الواقع، ولذا فإن النضال هو وسيلتهن للتعبير عن الرأى. كى يتوصلن فى عالم آخر ليس فيه ظلم أو اضطرابات.

نشرت كلير روايات قليلة طوال سيرتها الأدبية هى على التوالى: «أليز أو الحياة الحقيقية» عام ١٩٦٧ و«فيما يتعلق بكليما نص» عام ١٩٧٣، ثم «شجرة مسافرة» عام ١٩٧٨ و«زمن غير عاقل» ٢٠٠٣، و«مرض الكلب» ٢٠٠٧. ولأن أولى رواياتها تدور بين فتاة فرنسية وشاب جزائرى إبان حرب تحرير الجزائر فسوف نتناول هذه الرواية بشىء من التفصيل مع عرض موجز للروايتين الأخرتين سالفى الذكر.

ولدت «كلير» فى الحادى عشر من يناير عام ١٩٣٤ بمدينة «بوردو»

بجنوب فرنسا، وقد اشترك أبوها في المقاومة الفرنسية المسلحة ضد الاحتلال النازى إبان الحرب العالمية الثانية، لكن الألمان أسروه عام ١٩٤١، وأعدم رميًا بالرصاص فى العام التالى. وكان هذا الحادث سببًا فى أن تتعلم كلير التمرد الذى تشربته من أبيها وهى لا تزال طفلة لم تعرف الكثير من الأسماء أو الأشياء. فأبوها رجل ثورى سوف تراه مجسدًا فى الرجال الثلاثة الذين صورتهم فى أعمالها. وبعد أن مات أبوها ذهبت تعيش مع جدها فى إقليم الباسك، ثم رحلتِ فيما بعد إلى أمها التى تولت رعايتها.

وفى وسط عالم فقير وأسرة متواضعة للغاية، استطاعت أن تنال قدرًا ضئيلاً من التعليم سمح لها باستكمال دراستها. ثم ما لبثت أن تركت التعليم لتتزوج وهى فى الثانية عشرة من عمرها. وفى عام ١٩٥٣ حاولت نشر أولى رواياتها وهى فى التاسعة عشرة. لكن الناشرين أعادوا الرواية إليها مرة أخرى، فاتجهت إلى كتابة الشعر ونشرت بعضًا منه. وفى عام ١٩٦٠ رزقت بطفل صغير ثم انفصلت عن زوجها ورحلت إلى باريس لتعمل موظفة فى فرع شركة ستروين للسيارات، وتتفرغ تمامًا لتربية ابنتها مثلما ستفعل بطلات رواياتها فيما بعد. وتقضى معظم أوقاتها تقرأ حتى تتمخض هذه القراءات والمواقف عن أولى رواياتها «أليز أو الحياة الحقيقية» التى نشرتها عام ١٩٦٧ لتعبر من خلال أليز عن تجربتها الشخصية إزاء الفقر الذى عاشت ترتع فيه منذ سنوات

طويلة، وهى الرواية الوحيدة التى ترجمت للكاتبة إلى اللغة العربية، حيث نشرت فى روايات الهلال عام ١٩٩٠.

تـدور أحداث هذه الرواية فى نفس الأماكن التى عاشـت فيها كلير وهما مدينتا بوردو وباريس. أما الوسط فهو العالم الذى عانت منه طيلة حياتها، حيث الفقراء والعمال الباريسيون المطحونون. فأليز تعيش فى أسـرة فقيرة تتكون من أخيها لوسيان وجدتها.. يعيش الثلاثة فى فقر مدقع، لكن أليز تحلم وتدرس، وهذه الأحلام وتلك الدراسـة كفيلان أن يجعلوها تنتظر «حياة حقيقية».

أما الأخ لوسـيان فقد فشـل فى عدة أشـياء متلاحقة، مثل الدراسة وبعـض العلاقات العاطفية. يلتقى يومًا بهنـرى أحد أصدقائه القدامى فى المدرسـة، وكان يدرس القانون ويسـمى نفسه مناضلاً، لأنه يستعد للاشتراك فى ثورة الجزائر إلى جانب العرب.

يرحل لوسـيان إلى باريس وهناك يلتقـى بآنا ،وهى بدورها مناضلة تنتمـى إلى إحـدى النقابات، يعيش معها تحت سـقف واحد، وينضم إلى النقابة نفسـها ثم يرسـل فـى طلب أخته أن تلحق بـه فى عاصمة النور الكبرى.

وتجد أليز نفسـها فى مدينة تستهلك الكثير من النقود، فعليها أن تعمل كى يمكنها أن تظل بباريس، وفى نفس المجتمع الذى تعمل فيه مـع أخيها تقابل «أرزقى»، وهو عامل جزائرى فى الثلاثين من العمر،

ومن خلال تعاطفها مع قضية بلاده وسلوكه يرتبطان ارتباطًا عاطفيًا قويًا، لكن الزمن دائما قاس عليهما، فحين تندلع ثورة العمال عام ١٩٥٨ يقتل لوسيان في حادث ويختفي أرزقي هربًا من أعين الشرطة التي تبحث عنه.

تتحدث «أليز» عن أرزقي قائلة: «كان له وجه جميل صلد يبدو لا يعرف الخجل، لكنه يبدو أقل شبابًا من الآخرين». لقد دعاها إلى احتساء فنجان من القهوة بمناسبة عيد ميلاده الحادى والثلاثين. ترى أنه يحمل في صفاته الإنسان الكامل الحنون. فهي تتعلم منه كلمات كثيرة من اللغة العربية حول ماذا يعني الواجب، وماذا تعني كلمة «أحبك»، وهو يتعلم منها الحب والحنان. إنها تحاول من خلاله أن تفهّم زميلاتها مشكلة الجزائر التي تود الاستقلال عن فرنسا لكي تصبح دولة لها سيادتها واستقلالها بعد مائة وثلاثين عامًا من الاحتلال.

يقول لها أرزقي: إن الفرنسي يحب الجزائر كما يحب الإنسان الجواد الذى يمتطيه. النضال هو أن ينتمي المرء إلى بلد مطحون. ترد عليه لو لم أعمل مع العرب أو الزنوج، وإذا لم أقف بجانبهم فماذا أفعل؟. تحدثت إحدى صديقاتها قائلة: «إنه شاب جزائرى، يكفي إلقاء نظرة إليه كي تفهم كل شيء» إنه وتتحدث أليزا عن الحرب الجزائرية ضد فرنسا مرددة» وهل تريدون أن تنتشون بعذاب الجزائريين، يجب أن نحدثهم عما يهمهم، لقد سقط شاب جزائرى».

تجد أليز نفسها قد خسرت أقرب الناس إليها، مات أخوها واختفى حبيبها الجزائرى، فتقرر أن تعود إلى بوردو لتعيش مع جدتها بعد أن عرفت أن الفقراء أمثالها لن يعيشوا «الحياة الحقيقية قط». لقد استغرقت الحياة الحقيقية بالنسبة لها تسعة أشهر فقط أحبت خلالها الشاب أرزقى «لكن الأمل يرقد دائمًا تحت الرماد».

وأليز – كما ذكرنا – هى إحدى الشخصيات الرائعة التى ابتدعتها كلير اشتريللى. وهى الشخصية الرئيسية فى الرواية التى تقص حكايتها. فقد ربتها جدتها وأخوها فى مجتمع فقير معزول «إنهم أفقر الفقراء». تركت المدرسة فى سن التاسعة عشرة وبدأت تعمل، «لم أطلب يومًا إجازة أو أتطلع إلى الأعالى، فى سن العشرين كنت أبدو أصغر سنًا. كنت متكبرة بثقلى، وأرتدى الملابس غير الملونة وأبدو راضية لأننى لست كالأخريات».

وتنهمك أليز فى قراءة الصحف التى يتركها أخوها كى تعرف منها قضايا العالم الذى يحوطها، فهى تعانى كثيرًا من العمل فى المصنع لكنها مضطرة كى تعيش الصباح ودائمًا يجلب الضجة ويسبب الألم، كنت أشعر بالعنف يفسد رأسي». وأليز فى نظر أصحاب المصنع ليست سوى امرأة تمتلك ساقين قويين عليها أن تقف جامدة بهما طيلة النهار أمام صفوف هياكل السيارات الجديدة. ولذا فهى تحس أنها لا تختلف كثيرًا عن أى قطعة صلب فى داخل المصنع، لذا فإن علاقتها بأرزقى

لا تحدها حدود، فهو يفتح لها آفاقا مجهولة يبدو شغوفا بحياتى البسيطة وبمشاعرى الفاضلة وبآفاقى المحدودة وبأحاسيسى الحية. هذه الأشياء فجرت حرارة هذا الحب الكامن». ومن هنا يبدو مدى التناقض بين مجتمع صناعى لا يعرف إلا لغة المال، ومجتمع بكر يعرف كيف يفهم أبناؤه لغة الحب والحنان. «علمت ماذا تعنى كل هذا المشاعر وأن يبقى القلب مذمومًا وهو الذى كان يضحك من قبل. كان جسدى كله يتألم». وبعد أن يختفى أرزقى فإن أليز تود العودة إلى منزل جدتها الفقيرة مرة أخرى وتردد: «أرفض أن أتخيل ما ينتظرنى، يجب أن أبدأ فى البحث عن عمل. فسوف أختار بلا شك وسيلة أرزقى فى عالم لا توجد فيه علاقات إنسانية. لقد دامت الحياة الحقيقية، انسحبت بعدها داخل نفسى لكننى لم أمت بعد».

وقد كان الأخ لوسيان هو الرجل الأول فى حياتها، قد شكل عالمها الأكثر التزامًا. فقد علمها أشياء كثيرة منذ أن وعت قيمة الحياة وهى طفلة. لقد علمها كل القيم وناضل من أجلها، ترك التعليم كى يتولى شئون الأسرة. فى سن الرابعة عشرة كان للوسيان عاطفتان: حبه لهنرى وهو شعور نبيل منزه، ثم التزلج فوق الجليد. إنه يميل إلى أن يعمل فى مصنعه أكثر ويفخر بعضويته لنقابة العمال. ذات مساء قتلته سيارة فى الليلة التى هرب فيها كى يشترك فى مظاهرة لا جدوى منها.

وقد حصلت «كلير تشرللى» على جائزة «فيمينا» الأدبية عن هذه

الرواية. وهذه الجائــزة تمنح لأفضل الأعمال الأدبية التى تتولى الدفاع عن حق المرأة، وعن وضعيتها، وهى تمنح للرجال والنسـاء على السواء، لكن بشــرط أن تتناول الفكرة الإبداعية لدى المـرأة وتدافع عن قضاياها المختلفة مثل حقها في الحياة مستقلة، وألا تكون مطمعًا لرجل يتعامل معها كشـىء. ومن أبرز الذيـن نالوا هذه الجائزة: «سـيلفى جرمان» عام ١٩٩١، كما نالتها الأديبة «كوليت»، و«فرانساوز ماليه جوريس»، أمـا رواية «أليز أو الحياة الحقيقية» فقد أعجب بها المخرج الفرنســى ميشـيل دراش فقدمها في السينما عام ١٩٧٢ فى فيلم من بطولة زوجته «مـارى جوزيــه دات» والممثـل الجزائرى «محمد شــويخ» الذى أصبح مخرجًا سينمائيًا معروفًا فيما بعد.

بعد عدة سنوات نشرت كلير روايتها الثانية «فيما يخص كليمانص» عام ١٩٧٣، وفيها نرى أليز أخرى اسمها كليمانص، وهى امرأة رقيقة المشـاعر تعيش حياة بسـيطة، فهى عاملة بسيطة، تشعر أنها سجينة لأشـياء كثيرة. الآلات في المصنع التى لا تكـف عن الضجيج، والرجل الذى يحاول أن يتحكم فيها وأن يقودها حسـبما يشاء. وإذا كانت أليز قد أحبت شابًا جزائريًا ما يقرب من أربعين عامًا فإن «كليمانص» تحب رجلاً أسـبانيًا هاجر من بلاده بعد أن قام بالثورة ضد الجنرال فرانكو الذى حكم البلاد أربعين عامًـا، وهى تتعلم منه التحرر، فتغدو امرأة ثورية تطبق أفكار حبيبها. وفى الوقت الذى ينســى فيه الرجل شـيئًا

فشـيئًا قضيته، تتحول هى إلى أكبر مدافعة عن الثورة الأسبانية. وهذا اللون من الأدب الذى يؤكد إيجابية المرأة وسلبية الرجل ليس من سمات أعمـال كلير وحدها فقد عـبرت عنه المخرجة كولين سـيرو فى بعض السيناريوهات التى كتبتها وركزت عليها أديبات أخريات مثل شانتال شواف فى فرنسا، وجوريس كارول أوتس فى الولايات المتحدة.

أما آخر رواياتها فهى «شجرة مسافرة» صدرت عام ١٩٧٨ وفيها نرى امرأة ثالثة متمردة وذلك من خلال قصة عانستين تدعيان «آنا» و«ميللى». ولقد أنجبتا أطفـالاً من رجلين أحباهما دون الـزواج منهما، والمرأتان تبحثـان بصفة دائمة عن وظائف. وتجد ميللى عمـلاً فى أقبية المدينة حيث تكتب على آلة طابعة. هذا العمل فى رأيها لا قيمة له ويسبب لها الكثير من المتاعب، لكنها مضطرة إلى قبوله لأن أبناءها مرضى يعيشون فى غرفتهم المظلمة وينتظرون أن تأتى لهم بالأدوية والأطعمة.

أمـا «آنا» فهى أكثـر مرونة وواقعية وصلابة، فتقوم برسـم الكثير من اللوحات حول الفقراء الذين يعيشـون فى أحيـاء باريس الفقيرة، فتؤجـر منزلاً فـى إحدى القرى القريبة من العاصمـة. لها ثلاثة أبناء أنجبتهـم من رجل أحبتـه وعليها رعايتهم بعـد أن تخلى الرجل عن مسئوليته إزاءهم.

وفـى القرية تلتقى ميللى بوالتر الفنـان الذى يحول المبانى القديمة إلى مبـانٍ فخمة، وهـو يعيش حياته بمنطق «نحـن فى عصر يجب أن

نصبح فيه أثرياء»، فهناك «مائة وعشـرون ألف عامل من حولنا ويجب ألا نكون مثلهم».

و«ميللى» ترقـب ما يحدث فى مايو ١٩٦٨ إبان أحداث الطلبة وتود أن تشـترك فيها. أما والتر فهـو لا يفهم دوافعها جيدًا. وتعتبر ميللى نفسها شجرة مسافرة تظلل بظلها إناءها، وتغوص بجذورها فى «حياة ماضيـة داخل الأقبية» دون أن تتنسـم الهواء النقى الذى يجلب الكلمة والحركة للآخرين.

إنهـا ترى أن كل شـىء لا يسـير على ما يرام طالمـا أن هناك بطالة وإجازات مرضية. فقد اضطرتها الظروف الصعبة أن ترسـل أبناءها كى يتوسـلوا إلى البقالين ليأتوا لأنفسهم بشىء يأكلونه، وهى لا ترتبط بعد والتر بأى رجل. فقد أصبح الأبناء هم كل عالمهم. لكن والتر أبدى قلقه من أطفال ميللى الثلاثة، لأنه ليس مستعدًا لإعالتهم، ولذا تقرر أن تخرج من إطار هذا الرجل بل كل الرجال وتبحث بنفسها عن مسار حياتها.

بعد أن تصاب بصدمة لأحداث مايو ١٩٦٨ تلاحقها خيبة أمل جديدة فى أغسـطس من العام نفسـه عندما تحدث مأسـاة براغ، حين تقتحم القوات السـوفيتية العاصمة التشيكوسـلوفاكية وتحطم ربيعًا نبض فى قلوب الشـباب. حيث انتقلت ثورة الشباب الفرنسى إلى أكثر من مكان فى العالم ووجدت طريقها إلى قلب الشباب فى وسط أوروبا. لكن الجيش السـوفيتى حطم أملاً، وشـعرت ميللـى أن قلبها يتحطـم لكنها دائمًا

تعيش بأمل. وكلير تشرللى تنهى رواياتها دائمًا بالأمل والحيوية تملأ بطلاتهـا. فتقابل ميللى رجلاً يدعى «فانش»، سـبق لها أن أحبته منذ سنوات وتحتفظ له بأحلى الذكريات. لقد تغير الرجل ونبذ عالم الخمر وتحول من إنسـان ضائع إلى شـخص أكثر رقة، وارتبط بامرأة غيرتها ظروف بلادها وظروف العالم من حولها.

وعن أسلوب كلير اتشـرللى يقول هنرى جولين فى مجلة «لونوفيل أوبزفاتـور» فى ٣ يوليـو ١٩٧٨ إن أدواتها الفنية ثابتة لكن أسـلوبها أثـيرى، يخلب لـب القارئ ويجذبـه إلى عالمها، فهو ملـىء بالدفء الإنسـانى والعمل البشـرى. وبطلات كلير، كما عرفنا، ذوات شـعور عام؛ إذ لا يعرفن ولا يمكنهن أن يفصلن مشـاكلهن الخاصة عن مشاكل المجتمع الكبرى.

وشـخصيات كلير أقرب فـى صفاتهن إليها، فهـى تميل إلى الثورة والتمـرد، وهى تـرى أن على المرء أن يرتبط بـكل ما يحدث فى العالم وألا يكتفى الإنسـان بالنظر فقط داخل نفسـه، وإنما عليه أن يخرج هذه النفس أمام المعاناة التى يحسها البشر فى كل أنحاء العالم.

يوكو.. وأخواتها

هل يجب أن يحصـل كاتب ما من دولة بعينها علـى جائزة أدبيـة عالمية كـبرى كى يعترف العالم كلـه بأن هذا البلد لديه إبداع متميز؟!!

إجابـة هذا السـؤال تتمثل فـى الاهتمام بالأدب اليابانـى الحديث عقب فوز الروائى «أوى كينـزا بـورو» بجائزة نوبـل فى عام ١٩٩٤. وكأن أدباء اليابان كانوا فى القبور فاستوجب عليهم الخروج إلى دائـرة الضوء لبعض الوقت؛ حتى يفوز بالجائزة كاتب آخر كى يخرج أدباء آخرون من بلد آخر من دائرة الظلام إلى النور لبعض الوقت.

كشـف هذا الأمر بالنسبة لليابان أن هناك مبدعات لا تقل أهميتهن عـن الرجال الذين تمت ترجمة أعمالهـم تباعًا إلى لغات عالمية عديدة، منهـا اللغة العربية. والغريب أنه حتـى وقت قريب كانت الإبداعات المترجمة من اليابانية تشير إلى أن أدب بلاد الشمس المشرقة ينتمى فى المقـام الأول إلى الرجل، وأنه لا توجد امـرأة واحدة فى خريطة الأدب اليابانى الحديث، وخلت قوائم الأسماء المنشورة من أى امرأة.

ولذا فإن فوز «أوى» بجائزة نوبل كان بمثابة مناسبة سعيدة للكاتبات اليابانيات. فلأول مرة يدرج اسم كاتبة من طراز يوكو متسوشيما إلى قوائم الأدب اليابانى المترجم إلى لغات أجنبية خاصة الفرنسية، وراح النقاد يضعونها فى المقارنة مع «أوى» نفسه باعتبار أن إبداع كل منهما بمثابة إرهاص لتجارب شخصية أليمة عاشها الكاتب فى الواقع.

ويهمنا فى حديثنا عن هذه الكاتبة، أن نتعرف أيضًا إلى بنات جيلها الكاتبات، فليست «يوكومتسوشيما» حالة فريدة فى الإبداع اليابانى، بل هى واحدة من جيل مبدع من النساء. من هذا الجيل على سبيل المثال «ميساكو ماسودة» التى قوبلت روايتها «الخلية الأولية» بارتياح والتى تروى قصة حب بريئة بين فتاة وشاب، كل منهما بمثابة خلية أولية حياتية. أما الكاتبة «اب ناهيكارى» فقد لفتت الأنظار إليها فى عام ١٩٨٤ بروايتها «السباق البطىء لنساء طوكيو».

أما الروائية «ايمى يامادة» فتحكى فى روايتها «عيون الفراش» عن تجربتها العاطفية الحقيقية مع جندى زنجى أمريكى، وترى أن هذه التجربة بمثابة حالة هروبية من الواقع إلى المتعة.

وفى اليابان أيضًا روائية بارزة هى «سواكو ايروشى» وهى كاتبة تخصصت فى الكتابة عن التلوث، وقد قوبلت روايتها «كاى أو المنافستان» باستحسان عند نشرها عام ١٩٨١، ثم عندما ترجمت

إلى الفرنسية عام ١٩٨٦. وهى تدور حول امرأة تدعى «كاى» تعودت على التضحية من أجل رجلها، وتدور الأحداث فى بداية القرن التاسع عشر، حيث يعيش الجراح «هانوكا»، وهو أول من أجرى الجراحات الناجحة فى اليابان. ولم يكن لمثل هذا الرجل أن يحقق هذا الإنجاز دون مساعدة زوجته وأمه. وقد تعرضت الزوجة لصدمة فقدت على إثرها البصر، لكنها لم تتوقف عن دورها.

وتقول الكاتبة فى مجلة «مارى كلير»: «عشت نفس التجربة عندما تزوجت، وتعيشها نساء أخريات متزوجات فى المدينة بعيدًا عن الأهل فى الأقاليم. لكن عندما تأتى الحماة للزيارة لمدة يومين أو ثلاثة، فإن على المرأة أن تبدو مطيعة مثلما تفعل «كاى» مهما كانت معاناتها. صحيح أن اليابان تتطور بسرعة، ولكن التقاليد القديمة تبقى ثابتة لا تتحرك».

وكما نلاحظ فإن الكاتبة اليابانية أسوة بزميلها الرجل، تهتم بالعلاقات الإنسانية العادية، خاصة قصص الحب، وتبلورها كما تشاء من خلال أحاسيسها وتجربتها الذاتية. وإذا كان هناك تقارب بين هؤلاء الكاتبات، وبين نفس العالم الذى رأيناه فى روايات «ياسونارى كاوباتا» (نوبل ١٩٦٨) فإن هناك تقاربًا آخر بين عالم «أوى كينز ابورو» وبين روايات «يوكومتسو شيما». فالكاتب الذى حصل على جائزة نوبل عام ١٩٩٤ كرّس أغلب رواياته للحديث عن ابنه المعوق الذى ولد عام ١٩٦٤ مريضًا بالمانوليا، لكن روايات «يوكو» تدور حول مأساة موت

الأب الـذى رحل عـن عالمنا عام ١٩٤٨. أى بعد سـنة واحدة من ميلاد ابنته، وقد كان فى وفاة الأب «أوسـامو دازاى» صدمةً لدى الابنة عندما وعت ماذا يعنى الموت المأسوى؛ إذ انتحر الرجل فى ظروف بالغة الألم تاركًا أسـرة صغيرة. وفيما بعد تعددت المآسـى واشتدت جسامة عندما مات الابن الوحيد للمؤلفة فى عام ١٩٨٥.

وقد سـكبت المؤلفـة هذه التجـارب فى أربع روايـات ترجمت إلى الفرنسـية، وهى «مطاردة فى ضياء الليل» و«أرض من النور» عام ١٩٨٥ و«طفـل الثروة» عام ١٩٨٦ ثم «المرأة التى تجرى فى الجبل» عام ١٩٩٣. إذن نحـن أمـام نوع من الكتّـاب عبر إبداعهم عـن تجاربهم الحياتية خاصة أن ما عاناه كل منهم مع فرد عزيز من أبناء أسرته. فقد ولد الموت المأسـاوى فى حياة «يوكو» وهى لم تتعد العـام الأول من عمرها بعد أن انتحر أبوها «أوسـامو وازاى»، ثم جاءت المأساة ثانية وهى شابة يافعة فى الثامنة والثلاثين من عمرها. كما سـبق أن مات أخوها فى حادث عام ١٩٦١. ولذا فإن المأسـاة هنا تتضاعف. ولا شـك فـى المقارنة بين حياة كل من «يوكو» وحياة «كينز بورو» اسـتوجب المقارنة. لقد ظلت مأسـاة الحائز على جائـزة نوبل ماثلة أمامه كلما كبر ابنه المعوق أمام عينيه. على رغم أن الصغير قد كبر الآن، وأصبح عازفًا ماهرًا. أما مأساة «يوكو» فقد بدت فى الذاكرة، تخاف أن تسـترجعها، ولكنها عندما تستجمع شجاعتها فإنها تسجلها فى رواياتها.

ولذا، أجمع النقاد على أن كتابات «يوكو متسوشيما» بالغة الخصوصية. وتبدو متميزة قياسًا إلى التجارب الأدبية المعاصرة.إنها تهوى التحليل النفسى لأبطالها وانفعالاتهم ودوافعهم السلوكية. فإذا كان «أوى» قد وقف فى روايته ضد قوى عالمية أكبر، أدت إلى اندلاع الحروب العالمية وانتهت بإلقاء القنابل الذرية فوق المدن اليابانية، وتشويه الملايين من أبناء الأجيال المتعاقبة، فإن «يوكو» تقف فى مواجهة العنف الاجتماعى الداخلى الذى بدأ يظهر فى اليابان عقب نهاية الحرب. بدا هنا العنف بمثابة قدر أسود أشد مأساوية من الحروب، باعتبار أن أبناء الوطن الوحيد يتقاتلون فيما بينهم بشكل متقطع ودموى فينشطر الجسم اليابانى الواحد إلى شظايا.

فى روايتها «مطاردة فى ضياء الليل»، تتابع الظروف التى أدت إلى وفاة ابنها وهو فى الثامنة من العمر، وتقول إن الحدث قد أفقدها كل قدرة على التخيل، ولذا جاءت الرواية بمثابة رسالة مفتوحة موجهة إلى أديب عاش فى القرن الحادى عشر، وذلك من أجل تعميق وجود الطفل فى حياة داخلية. والرواية بمثابة حوار داخلى تتحدث فيه الراوية إلى نفسها عبر الأزمنة التى عاشتها بلادها طوال قرون، سواء الأزمنة التى تتجاهلها أم تلك التى تؤمن بأنها تمثل مجد اليابان.

ومن الواضح أن التجربة الخاصة بابنها لم تكن قد حدثت عندما نشرت رواية «المرأة التى تجرى فى الجبل»، فقد نشرت لأول مرة فى

اليابان عام ١٩٨٠ وهى عن امرأة شابة تعمل خادمة فى أسرة تافهة، ولذا فإنها تتصرف كسجينة أكثر من كونها خادمة. ولأنها تكره أباها المدمن للكحول، فقد رمت نفسها فى أحضان رجل عابر ما لبث أن هجرها وفى بطنها جنين. ومثل هذه التجربة تستوجب الحديث بخصوصية المشاعر الداخلية، فكم من امرأة فى الكون حملت سفاحًا من رجل عابر، لكن بطلة هذه الرواية ستراجع آلامها ومشاعرها، وتحلل دوافعها بشكل يجعل التجربة جديدة فى صياغتها وشكلها. إنها امرأة أخرى محبوبة، لكن ليس بين أسرة تعدل لديها، لكن داخل الكلمات التى تنطلقها والمفاهيم التى تعيش عليها.

ونجد المرأة، واسمها «تاكيكو» نفسها فى خيار صعب، فهل تحتفظ بالطفل أو تبقى على أحلامها فى أن تعيش حرة، تسوقها أقدامها إلى تاجر يبيع النباتات. إنه زميل قديم لها يسمى «كمبياشى»، يسحرها بأسلوبه وشخصيته ولكنها لا تحبه. فهى ترى أن الحب أمر مستحيل، بل إنها لا تعرف هذه المشاعر الفياضة قط فى حياتها. لكن كل ما تبحث عنه هو مرآة ومكياج، وتعرف أن للرجل أخًا سبق أن مات. إنه نفس شقيق الكاتبة الذى مات فى حادث عام ١٩٦١، وأن القدر قد جمعهما معًا باعتبار أن كلا منهما مصاب فى عزيز لديه.

يقرر الاثنان السفر إلى الجبل الذى يقع خارج العاصمة، فيقترب كل منهما من الآخر أكثر. وتحاول «تاكيكو» أن تعرف الحب الحسى مع

الرجل، لكنه يبدو غير مستعد لذلك. فهو يود رؤية الأشياء بمنظور معنوى، ويصبح الجبل رمزًا لوطن ناصع البياض، وهناك فى الشمال يذهب الاثنان إلى حيث تسكن أم المرأة. إنها منطقة بللورية تجد توفقًا فى داخل المرأة وتبدو كأنها تحج إليها لتغسل كل ما أصابها من متاعب.

وبالنظر إلى هذه الروايات، فإن هناك تشابهًا واضحًا بين العالم الداخلى للكاتبة، ونفس العالم الذى عاشه العجوز فى رواية «بلاد الجليد» للكاتب «ياسوناى كاواباتا»، بل العديد من شخصيات هذا الكاتب، حيث يرمز الجليد إلى العربة، التى يحلم بها هؤلاء الأبطال، لذا فإن رحيل «تاكيكو» من المدينة التى اغتصبتها إلى الجبل الذى يعلوه الجليد، بمثابة حالة حقيقية من الخلاص وبلوغ مرحلة سامية. وكأن «تاكيكو» تعيش حياة خاصة بها، سبق لملايين اليابانيين أن عاشوا مثلها طوال التاريخ منذ أن فعل الأمير «بوذا» قبل عشرات القرون.